جامعة الصادق -
كلية الآداب

(إذا) بعد (القسم) :إشكاليّة النحو وآفاق النّص

مهدي صالح سلطان

المقدّمة :

النحو في بعض تعريفاته: العِلمُ الذي يبحث (في أحوال التركيب والترتيب)(١٤)، وغايته معرفةُ القواعدِ التي تضبط (كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقًا بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب... وأعني بكيفيّة التركيب تقديم بعض الكلم على بعض، ورعاية ما يكون من الهيئات إذ ذاك)(١٥)؛ أمّا الإعراب فهو قسيم التركيب، ومنهما يتألّف النحو، فمضمون القواعد النحويّة الجمع بين التركيب والإعراب؛ والتركيب نفسه يتفرّع إلى تأليف وترتيب(١٦). و(الشرط: ما يطلب جملتين يلزم من وجود مضمون أولاهما فرضًا حصول مضمون الثانية، فالمضمون الأول مفروض والثاني لازم)(١٧)؛ وقرّر المتخصّصون في حروف المعاني تجريد (إذا) من معنى الشرط(١٨)، وأنها لمجرّد الظرفيّة المحضة(١٩)؛ وأنموذج هذا قوله تعالى: (والليل إذا يغشى ـ الليل ١)، (والنجم إذا هوى ـ النجم ١)؛ والذي حملهم على هذا تعذّر التقدير، لأنهم حصروا التقدير في الجملة الواحدة ، ولم يفكّروا في النّصّ أو النصوص ذات الشأن لتسويغ التقدير وهذا هو موضوع هذا البحث، الذي نقسمه على مبحثين أوّلهما: سياق إذا بعد القسم في سور القرآن، والثاني: التخريج النحوي لـ(إذا) بعد القسم.

المبحث الأوّل : سياق (إذا) بعد القسم في سور القرآن الكريم

أوّلًا : (إذا) بعد (القسم) في سورة (النجم)

أقسم الباري عز وجل لإثبات صدق النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، في قوله تعالى: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ـ النجم ١ ـ ٢) . و تُسَمِّي العرب الثريا نجمًا وإن كانت في العدد نجومًا، و(إذا هوى): إذا غاب وسقط، و(ما ضل صاحبكم) جواب القسم(٢٠).

والنجم هنا في الأصل الكوكب، ثم نقل إلى الوقت المضروب المعين إذ يتعرفون الأوقات بالنجوم، والنجم الثريا، والمراد طلوعها صباحًا في أول الصيف وذلك عند اشتداد الحر ببلاد الحجاز وابتداء نضج الثمار(٢١). فـ (كانوا يُوقّتون بأزمان طلوعها مواقيت الفصول ونضج الثمار)(٢٢) .

وبحسب مواقع هذه النجوم أمكن للإنسان التائه معرفة موضعه من الأرض عند النظر إلى النجوم كالقافلة في الصحراء أو السفينة في البحر ، قال تعالى : (وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ـ النحل ١٦) . وقوله جل جلاله : (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ـ الأنعام ٩٧) .

أمّا في سورة النجم فـ (كأنه قيل والنجم الذي يهتدي به السابلةُ إلى سواءِ السبيل "ما ضل صاحبكم" أي ما عدل عن طريق الحق الذي هو مسلك الآخرة)(٢٣) .

١٤) إحصاء العلوم ٦١ .
١٥) مفتاح العلوم للسكاكي ٢٠٤ .
١٦) الوسائط اللغويّة ٤٦٦/٢ .
١٧) شرح الرضي ١٢٧/٤ .
١٨) الجنى الداني للمرادي ٣٦٧ ـ ٣٦٨ .
١٩) ارتشاف الضرب ١٨٦٥/٤ .
٢٠) عمدة القاري ١٩/ ١٩٥ .
٢١) نفسه ١٢ / ٤.
٢٢) التحرير والتنوير ٢٧/ ٩٧ .
٢٣) تفسير أبي السعود ١٥٤/٨ .

والتقدير : وعظمةِ النجمِ إذا هوى النجمُ ـ الذي تعرفون ـ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ

ثانيًا : (إذا) بعد (القسم) في سورة (المدّثّر)

(كَلَّا وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ـ المُدّثّر ٣٣ ـ ٣٤) ، فـ(القمر) من دون اقتران بـ (إذا) ، وأمّا (الليل) فمقترن بـ (إذا أدبر) : أي نهايته ، والصبح مقترن بـ (إذا أسفر)، أي ظهر وتجلّى ؛ والجواب : (كلاّ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ـ المُدّثّر ٣٥) ، الكُبَر جمع الكبرى، كناية عن نار جهنم(٢٤) ؛ وكان الحِلفُ بثلاثة أمور : متتابعة زمانيًّا إشارة إلى تكامل طلوع الصبح، استعارة لوضوح الأمور ، (كأنه يريد إثارة الفكر الإنساني ، وتوجيهه صوب الكواكب السيارة ذات الوضع الخاص على القبة السماوية ، ليُتَأمَّلَ أمرها وقدرة خالقها وعظمته سبحانه وتعالى)(٢٥) . إذ إنّ القسم كان بدوالّ الظواهر الكونيّة الزمنيّة في السورة : (القمر وإدبار الليل وإسفار الصبح وتجلّيه) ، في ردّ مفتريات الوليدِ بن المغيرة المخزومي مثلما يذكر أهل التفسير(٢٦) ، فقد جاء على لسانه في هذه السورة : (إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ـ المُدّثّر ٢٥) ، ذلك بعد الوصف التفصيلي لتردّده وتجبّره وتهافته الذي ترسمه السورة ، وتعرض في الوقت نفسه عقوبته : (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ـ المدّثر ١٨ ـ ٣٠) ؛ وقد تكرّر الردع بـ (كلّا) قبل التركيب وفي جوابه ، للإشارة إلى كمال القدرة ووفور النعمة في ردّ مفترى المفتري .

وواضح (أنّ القمر في الليل الدامس يهدي السائرين، كما أن الصبح وطروء النهار يبدد الظلام ويظهر النور، فناسب أن يحلف سبحانه بأسباب الهداية ، ومعادن النور ومظاهره، بغية إثبات أنّ القرآن لإحدى المعاجز الكبرى التي تهدي البشر إلى سبيل الرشاد)(٢٧) .

وكان الابتداء بالقسم ، (بالقمر الذي هو آية الليل وفيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه وبارئه وحكمته وعلمه وعنايته بخلقه ما هو معلوم بالمشاهدة وهو سبحانه أقسم بالسماء وما فيها مما لا نراه من الملائكة وما فيها مما نراه من الشمس والقمر والنجوم وما يحدث بسبب حركات الشمس والقمر من الليل والنهار وكل ذلك آية من آياته ودلالة من دلائل ربوبيته ومن تدبّر أمر هذين النورين العظيمين وجدهما من أعظم الآيات ... بتسخير مسخر وأمر آمر وتدبير مدبر)(٢٨) والتقدير خارج النصّ القرآني : والليلِ إذا أدبر الليلُ والصبحِ إذا أسفر الصبحُ : (إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ) ...

ثالثًا : (إذا) بعد (القسم) في سورة (التكوير)

جيء بـ (إذا) بعد القسم مرتين ، بعد قوله تعالى : (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ـ التكوير ١ ـ ١٤) ؛ (كل ذلك إشارة إلى فناء الدنيا وانقطاع نشأتها وبروز مكامنها وخروج هويات ما فيها إلى النشأة الآخرة)(٢٩)، هي (ثنتا عشرة خصلة : ستّ منها في مبادئ قيام السّاعة قبل فناء الدّنيا ، وستّ بعده ، لأنّ المراد : زمان متّسع شامل لها ولمجازاة النّفوس على أعمالها)(٣٠)؛ ومجموع هذه الموارد كنايات عن التغيّر والزوال وتعطيل ما في هذه الدنيا ، لينتهي الأمر بالمساءلة الكبرى والنتيجة العظمى أي معرفة ما قدّم الإنسان ، وما عمل من خير أو شر ، في قوله تعالى : (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ) ؛ فكان هذا هو جواب جميع ما تكرّر من الشرط ، أي علمت ما أحضرته عند نشر الصحف من صحائف الأعمال(٣١).

ثمّ جاءت (إذا) بعد القسم ، في قوله تعالى : (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ـ التكوير ١٧ ـ ١٨) ، فالجواب والغاية : (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ـ التكوير١٩) ، ذلك لردّ مدعّيات المخاطبين ، في قوله تعالى : (وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ... ـ التكوير٢٢) ، يلحظ الشدّة مع تكرار الشرط في

٢٤) البحر المحيط ٣٧٨/٨ .
٢٥) الأمثل ٤٦١/١٩ .
٢٦) معاني القرآن ٣٠١/٣ ـ ٢٠٢ .
٢٧) الأقسام في القرآن الكريم ١١٧ .
٢٨) التبيان في أقسام القرآن ١٠٣ ـ ١٠٤ .
٢٩) أسرار الآيات ٩٣ .
٣٠) تفسير كنز الدقائق ١٥٢ .
٣١) فتح القدير ، للشوكاني ٣٩٠/٥ .

الآيات الأول السابقة لتركيب (إذا) بعد القسم ، أمّا معها فالحال مختلف ؛ فإذا كانت حقائق تتابع الليل والنهار مما تجدون من حقائق ، وأنّ قدرة الله على فناء الدنيا والحساب في الآخرة ، فهذا الخطاب هو من الله جلّ وعلا .

والتقدير خارج النصّ القرآنيّ : وَعظمةِ اللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ الليلُ ، وَعظمة الصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ الصبحُ ... ترون آيتيهما : (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) .

رابعًا : (إذا) بعد (القسم) في سورة (الانشقاق)

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ والقمر إذا اتّسق، لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ـ الانشقاق ١٦ـ ١٩) ، أقسم بثلاثة أشياء متعلقة بالليل أحدها الشفق ، وهو الحمرة بعد غروب الشمس، وما وسق أي وما جمع وما ضمّ ومما كان منتشرًا بالنهار ، والقمر إذا اتّسق إذا استوى وتكامل وتمّ ليلة البدر ، و(اتساق القمر) اكتمال نوره عندما تكون الأرض بين كل من الشمس والقمر ، وعلى ذلك فإن أهل الأرض يرون القمر بدرًا كاملا ، والوسق الضمّ والجمع وفلان متّسق أي مجتمع على أمر[٣٢] ؛ و(لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ) ، جواب القسم ، والطبق : الشيء ، أو المنزلة ، أو الحال الذي يطابق آخر .

(ومناسبة الأمور المقسم بها هنا للمقسم عليه ، لأنّ الشفق والليل والقمر تخالط أحوالاً بين الظلمة وظهور النور معها ، أو في خلالها وذلك مناسبة لما في قوله : " لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ" من تفاوت الأحوال التي يختبط فيها الناس يوم القيامة أو في حياتهم الدنيا)[٣٣] . (فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ والقمر إذا اتّسق) .

والتقدير خارج النصّ القرآنيّ : والقمر إذا اتسق القمرُ : لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ .

خامسًا : (إذا) بعد (القسم) في سورة (الفجر)

(وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ـ الفجر ١ ـ ٦) ، تكرار أربعة أقسام ، وكان تركيب (وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ) الخامس بعدها ، ويسري : يمضي ، حتى ينقضي بالضياء المبتدئ ، وسَريُّ الليل مضية وإدباره ، من سرى يسري ، وحذف الياء ـ يَسرِ ـ لأجل توحيد فواصل الآيات ، فالليل ظرف والساري غيره ، ولكن الآية نسبت الفعل إلى نفس الليل فكأنّ الليل موجود حقيقي له سير نحو الأمام فهو يسير إلى جانب النور ، فالله سبحانه حلف بالظلام المتحرك الذي سينجلي إلى نور النهار . ويستعمل الفعل في السير في الليل ، كما في قوله سبحانه : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ـ الإسراء ١) ، زيادةً على ما في الليل من عظائم البركات التي لا تقوم الحياة إلا بها .

و(هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ ـ الفجر ٥) ، (أي : فيما أقسمت به من هذه الأشياء)[٣٤]، (والمعنى أنّ في ذلك الذي قدّمناه قسَمًا كافيًا لمن له عقل يفقه به القول ، ويميّز الحقّ من الباطل ... ولا يقسم إلاّ بما له شرف ومنزلة؛ وجواب الأقسام المذكورة محذوف يدلّ عليه ما سيذكر من عذاب أهل الطغيان والكفران في الدنيا والآخرة وثواب النفوس المطمئنة ... وحذف الجواب والإشارة إليه عن طريق التكنية أوقع وآكد في باب الإنذار والتبشير)[٣٥] .

تقول بنت الشاطئ : (نطمئنّ إلى أنّ آيات القسم في سورة الفجر قد تمّ بها المقصود من اللفت إلى المقسم به ، بما يغني عن تأوّل جواب محذوف أو غير محذوف)[٣٦].

وقد اختلفوا في تقدير جواب الأقسام : وصلاة الفجر، أو ورَبِّ الفجر ... ليُجازِيَنَّ كلّ أحدٍ بما عمل ، (وقدّره الزمخشري : ليُعذّبَنَّ ، وقال ابن الأنباري الجواب أنّه قوله : "إنّ ربّك لبالمرصاد" ، والذي يظهر أنّ الجواب محذوف يدلّ عليه ما قبله من آخر سورة الغاشية وهو قوله "(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ـ ٢٥ ـ ٢٦) [٣٧] .

وعلى العموم فتقدير الجواب خارج النصّ : وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ الليلُ : ليجازيّنّ ...

سادسًا : (إذا) بعد (القسم) في سورة (الشمس)

يُلحظ تقابل ثنائيّات : (الشمس والقمر) و (والنهار والليل) و (السماء والأرض) في سورة الشمس : في قوله تعالى : (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا

٣٢) الدر المصون ٤٩٩/٦ .
٣٣) التحرير والتنوير ٢٠١/٣٠ .
٣٤) الكشاف ١١٩٩ .
٣٥) الميزان ٢٥٣/٢٠ .
٣٦) التفسير البياني١٣٦ .
٣٧) الدر المصون ٥١٧/٦ ، والبحر المحيط ٤٦٦/٨ .

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ـ الشمس ١ ـ ١٠) .

ففي آيات سورة الشمس سبعة أقسام بمخلوقاته ؛ وهذا هو التكرار الأوسع ، لأنّ السورة تتعرض لموضوع عظيم عظمة ظواهر السماء والأرض ؛ فالمُقسمُ به يرتبط بالنظام السماوي والأرضي الذي يوضح قدرة الخالق وتدبيره المطلق ؛ وأثر الشمس في الموجودات الحيّة على ظهر البسيطة معروف ، إذ القسم بهذه الظاهرة السماوية المهمة في حياة البشر ولجميع الأحياء ، فالنهار رمز الحركة والحياة ، وكل الفعاليات والنشاطات، وأكثر مساعي الحياة تتم عادة في ضوء النهار؛ ولولا ظلام الليل لما كان هناك هدوء واستقرار ، لأن استمرار سطوع الشمس يؤدي إلى ارتفاع في درجة الحرارة وتلف كل شيء ، ومعها لا يبقى موجود على قيد الحياة ، لكن في دوام الليل تنخفض درجة الحرارة حتى يتجمد كلّ موجود لو قدر له أن يكون هناك ؛ و(أقسم بالمصنوع الدال عليه وبصنعته الدالة على كمال علمه وقدرته وحكمته وتوحيده ولما كانت حركة الشمس والقمر والليل والنهار أمرًا يشهد الناس حدوثه شيئا فشيئًا ويعلمون أن الحادث لا بد له من محدث كان العلم بذلك منزلا منزلة ذكر المحدث له لفظًا فلم يذكر الفاعل في الأقسام الأربعة ولهذا سلك طائفة من النظار طريق الاستدلال بالزمان على الصانع وهو استدلال صحيح قد نبه عليه القرآن في غير موضع كقوله : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ـ آل عمران ١٩٠))[٣٨].

وكان تتابع الأقسام :

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ..

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ..

أي ستة منسجمة ، ثمّ القسم السابع المختلف : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ..

ومجموعة جواب القسم هي :

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا .

ويبدو أنّ اعتراض (ونفسٍ وما سواها فألهمها ...) قبل الجواب ، فصارت قد أفلح تابعة لقوله : فألهمها ، وكفى من جواب القسم ، فكأنه قال : والشمس وضحاها لقد أفلح ، وتنكير (نفسٍ) للتفخيم ، فهو الذي سوّى النفس وخلقها ، فعدل خلقها ، فبيّن لها ما ينبغي أن تأتي أو تذر[٣٩]، فالجواب للشرط لا للقسم بدلالة الفاء ، وامتنع تكرار الفاء مع (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) . (والشمس وضحاها ـ الشمس ١) ، (فإن قيل أين جواب القسم ؟ ... قال الزجاج وغيره: إنّ قوله تعالى : (قد أفلح من زكّاها ـ الشمس ٩)، وحذفت اللام [لام جواب القسم] لطول الكلام، وقال ابن الأنباري: جوابه محذوف، وقال الزمخشري : تقديره لِيَدمِدَمَنّ الله ...)[٤٠] .

والتقدير خارج النصّ القرآنيّ : وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا القمرُ ، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا النهارُ ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا النهار .... قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ...

سابعًا : (إذا) بعد (القسم) في سورة (الليل)

توسطت سورة (الليل) سورتي : (الشمس) و (الضحى) ، وقد افتُتحت بقوله تعالى : (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ـ الليل ١ ـ ٤) ، وقد تكرّرت (إذا) بعد (القسم) فيها بواو العطف ، ولهذا التكرار توجيه وجّه به النحاة ؛ فـ (إذا تكرّرت الواو بعد واو القسم ... فمذهب الخليل وسيبويه أنّ المتكرّرة واو العطف ... والقسم شيء واحد ، والمقسم به ثلاثة ، والقسم هو الطالب للجواب ، لا المقسم به ، فيكفيه جواب واحد ، فكأنّه قال : أقسم بالليل والنهار وما خلق الله : إنّ سعيكم لشتى ، أي أقسمُ بهذه الثلاثة أنّ الأمر كذا ... [و] إنّ التقدير : وعظمة الليل إذا يغشى ، فالعامل في الليل في الحقيقة هو العظمة المقدّرة ، وكذا في : إذا يغشى ، فيكون الواو قائمًا مقام العظمة ، وهي عامل واحد فيكون التقدير : بعظمة وقت الليل...)[٤١] .

(فتبارك الذي جعل طلوع الشمس وغروبها مقيمًا لسلطان الليل والنهار ، فلولا طلوعها لَبَطُلَ أمر العالم كله فكيف كان الناس يسعون في معاشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم ... بل جعله أحكم الحاكمين سكنًا ولباسًا كما جعل النهار ضياء ومعاشًا ولولا الليل وبَرده لاحترقت أبدان النبات والحيوان من دوام شروق الشمس عليها وكان يحرق ما عليها من نبات وحيوان فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن جعلها سراجًا يطلع على العالم في وقت حاجتهم إليه

٣٨) التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية ، دار الفر ، د ت ، ١٣ .
٣٩) جامع البيان للطبري٢٣/١٤٣ ـ ٣٠/٢٦٨ .
٤٠) أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها ٤١٥ .
٤١) شرح الرضي ٦/ ٥٧ ـ ٥٨ .

ويغيب في وقت استغنائهم عنه فطلوعه لمصلحتهم وغيبته لمصلحتهم وصار النور والظلمة على تضادهما متعاونين متضافرين على مصلحة هذا العالم وقوامه ، فلو جعل الله سبحانه النهار سرمدًا إلى يوم القيامة ، والليل سرمدًا إلى يوم القيامة ، لفاتت مصالح العالم ، واشتدت الضرورة إلى تغيير ذلك وإزالته بضده ؛ وتأمل حكمته سبحانه في ارتفاع الشمس وانخفاضها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة وما في ذلك من مصالح الخلق)[٤٢] ؛ فظواهر استمرار الحياة محسوسة، وحاجة البشر إلى تتابعها وتنوعها أكيدة .

ولو وازنّا بين ما في هذه السورة وسورة الشمس السابقة لوجدنا التجانس والتوافق والترابط النصّي بين السورتين اللتين افتتحتا بالقسم بغشيان الليل وظلمته ، وجلوّ النهار وظهوره على الأرض :

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَـاهَا ـ الشمس ٤) : (والليل إذا يغشى ـ الليل ١) .

(وَالنَّهَـارِ إِذَا جَلَّاهَـا ـ الشمس ٣) : (والنهار إذا تجلّى ـ الليل ٢) .

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ـ الشمس ١١) : (لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ـ الليل١٥).

(قَـدْ أَفْلَـحَ مَنْ زَكَّاهَـا ـ الليل٩) : (الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ـ الليل ١٨) .

وكان ترتيب تقدمّ الليل على النهار في القرآن الكريم سوى موضعين ، لشرف الليل على رأي وتقدّمه وانسلاخ النهار منه على رأي آخر ، (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ـ يس٣٧) ، وقد تقدّم الليل على النهار في هذه السورة فيما تقدّم النهار وتأخّر الليل في سورة الشمس ، قال ابن عاشور : (وابتُدئ في هذه السورة بذكر الليل ثمّ ذكر النهار عكس ما في سورة الشمس، لأنّ هذه السورة نزلت قبل سورة الشمس بمدّة ، وهي سادسة السور وأيّامَئِذٍ كان الكفر مخيّمًا على الناس إلاّ قليلاً ، وقد أخذ في التجلّي فناسب تلك الحالة بالإشارة إلى تمثيلها بحالة الليل حين يعقبه ظهور النهار)[٤٣] .

ومن الانسجام داخل السورة في مناسبة تكرار اليمين ما أشار إليه ابن عاشور أيضًا في قوله: (وفي مناسبة المُقسَم به للمُقسَمِ عليه أنَّ سعيَ الناس منه خير ومنه شرٌّ وهما يماثلان النور والظلمة ... واختير القسم بالليل والنهار لمناسبته للمقام لأنّ غرض السورة بيان البون بين حال المُؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة)[٤٤]. فيما ارتبطت (سورة الليل) نفسها بالسورة التي بعدها ارتباطًا نصيًّا ، إذ اختتمت هذه السورة بقوله تعالى : (ولسوف يرضى) ، أمّا في (سورة الضحى) فتأتي الآية الخامسة لتخاطب النبي ص : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) ، وقد تقدّم (الضحى) الدال على النهار مثلما تقدم في سورة الشمس ، ما يدلّ على البشارة والتفاؤل مثلما سنعرض في المبحث الآتي . أمّا التقدير خارج النصّ القرآنيّ فهو : وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى الليلُ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى النهارُ ... إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى .

ثامنًا : (إذا) بعد (القسم) في سورة (الضحى)

أقسم جلّ وعلا بالضدّين مثلما أقسم في السورة السابقة وغيرها ، أقسم بالضحى وقت انبثاق نور الشمس ، وبالليل في سجوّه وهدوئه ، في قوله تعالى : (وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ـ الضحى ١ - ٣)، أقسم بنور النهار[٤٥] ، أي بالمدرك المحسوس لظاهر ما يجري بالحياة ، لأجل أن يتفكّرَ المتلقّي في المدلول المعنويّ ، فدلالة الضحى الباعث على الحركة والنشاط ، و(اللَّيْلِ) الداعي للراحة والسبات ، إذ إنّ خالق الظواهر هو خالق هذا التعاقب والتقابل ، وخالق ضوء النهار وظلمة الليل في يوم المخاطبين الواحد ، إذ أقسم سبحانه بهاتين الآيتين لأنهما من آياته الكبرى . فالقَسَم (بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره ، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه ، وأيضًا فإنَّ فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار ، هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة ، فهذان للحسِّ وهذان للعقل ... فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه ، وتأمّل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ والجلالة التي على معانيها ، ونفى سبحانه أن يكون ودّع نبيه أو قلاه ، فالتوديع : التركُ ، والقليُ : البغضُ ، فما تركه منذ اعتنى به ، وأكرمه ولا أبغضه منذ أحبه، وأطلق سبحانه أن الآخرة خير له من الأولى ، وهذا يعمُّ كل حالة يرقيه إليها ، هي خير له مما قبلها، كما أنّ الدار الآخرة خير له مما قبلها ، ثم وعده بما تقر به عينه وتفرح به نفسه، وينشرح به صدره ، وهو أن

٤٢)شرح الرضي ٦ / ١٠٥ ـ ١٠٦.
٤٣) التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٣٤ .
٤٤)التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٣٤ .
٤٥) مجمع البيان ١٠/ ٦٤٤ .

يعطيه فيرضى، وهذا يعم ما يعطيه من القرآن ، والهدى، والنصر، وكثرة الاتباع ، ورفع ذكره وإعلاء كلمته، وما يعطيه بعد مماته ، وما يعطيه في موقف القيامة ، وما يعطيه في الجنة)[٤٦].

أمّا دلالة البدء بالضّحى فللبشارة والتفاؤل بقرينة (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى - الضحى ٥)، ذلك كلّه لإبطال دعوى المشركين أنّ الوحي انقطع عن النبيّ ص ، والقسم لتأكيد الخبر ردًّا لهذا الزعم[٤٧]. (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى - الضحى ٥) ، عطف على جملة القسم ، وسوف للاستقبال ، وفيها تناصّ مع آية سورة الليل (ولسوف يرضى) مثلما عرضنا في المبحث السابق . والتقدير خارج النصّ القرآنيّ : وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى <u>الليلُ</u> مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ .

المبحث الثاني : التخريج النحوي لـ(إذا) بعد القسم

أوّلًا : تركيب (إذا) بعد القسم

(إذا) بعد (القسم) تداخل بين قسم وشرط متلازمة بحثنا هذا ، وجملتها مؤلّفة من :

واو قسم + اسم مقسم به + إذا + فعل ماضٍ أو مضارع + جواب القسم

ففي مثل قوله تعالى : (والنجمِ إذا هوى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ - النجم ١ - ٢) ، المقسم به (والنجمِ) ، أُسنِدَ فعلُ الشرطِ إلى ضمير النجم ، وتقديره خارج النصّ القرآنيّ : وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى [<u>النجمُ</u>] مَا ضَلَّ صَاحِبُكُم ، فإذا كان النجم يَهوي - وهذا هو الثابت المعروف عند المخاطبين - فـ (ما ضلّ صاحبكم) ثابت أيضًا ؛ فالشرطُ يومِئُ إلى وجود ظاهرة كونيّة متحرّكة من ظواهر ما يعرفون ، لا مُجرّد الهُوِيُّ مرّة واحدة .

والتلازم بين القسم والشرط يُنبّه على وجوب تأمّل هذه الظاهرة اللغويّة المرتبطة بمظاهر الحركة الكونيّة ، وكذلك تأمّل التلازم اللفظيّ بين الاسم المقسم به وفاعل فعل الشرط المقدّر به ، فـ (إذا) والفعل واقعان بين القسم وجوابه ، والمقسم به هو نفسه الفاعل المقدّر لفعل الشرط ، ولو اكتُفِيَ بالقسم بالنجم من دون (إذا) والفعل ، لما اتضحت حركة الكون في الغياب والظهور .

فالقسم بنجوم السماء لا لأنها محض نجوم بل لأنّها دليلٌ من أدلة عظمةِ الله ومن أسرار عالم الوجود الكبرى ، وأنّها من ضمن انتظام قوانين الخَلق واستمرار الزمن ، وقد أقسم في مواضعَ أُخَرَ بالشمس والقمر ، والليل ، والنهار ، والصبح ، والضحى وغيرها ؛ فغروبُ النجم أو هُويُّه دليل على حدوثه ، والقسم بطلوع الكواكب وغروبها دليل على حدوثها وانتظام هذا الحدوث[٤٨] .

قال تعالى : (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا - الإسراء ١٢)، فلولا ما يحدثه الله سبحانه من آيات ، لم تعلم المواقيت ولا معرفة أوائل الشهور وأوساطها وأواخرها[٤٩] .

وسُوِّغَ الأقسامُ بهذه الألفاظ عَلَى توجيهات نحويّة ، منها :

١ - حَذْفُ مُضَافٍ مقدّر ، أَيْ : وربِّ النجمِ ، ورَبِّ الليلِ ، ورَبِّ النهارِ ، ورَبِّ الشَّمْسِ، وربِّ الصبحِ ، ورَبِّ الضحى ؛ فالتقدير على هذا : وربِّ النجمِ إذا هوى النجمُ ما ضلّ صاحبكم وما غوى ؛ ونرجّح تقدير الرضيّ الاسترآبادي : (وعظمةِ) بدلاً من (ورَبِّ) .

٢ - تعظيمُ الْعَرَبِ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءَ وَالقَسَمُ بِهَا ، فَنَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى ما يعرفون ، ويتّضح هذا من قوله تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ - العنكبوت ٦١) ، و(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ - لقمان ٢٥ ، والزمر ٣٨) ، (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ - الزخرف ٩) ؛ الجواب في هذه الآية : (وَالْأَمْرُ للَّهِ) خالق هذا التلازم ؛ فهذه الظواهر كونيّة عظيمة خلقها الله جلّ وعلا[٥٠] .

فالحِجاج يستندُ إلى ما يعظّم العرب ، ومن المفردات التي كانوا يستعملون ، في بنية قرآنيّة فاقت ما كانوا يؤلفون ، وفي نظم قرآنيٍّ جديد ينفذ إلى العقول والقلوب ؛ وكان ترتيب نزول آيات اقتران القسم بالشرط من ضمن السور المكّيّة ، وكان بالمخاطبين حاجة إلى التوكيد بالقسم بما يحيط بهم من المحسوسات التي تتوقف عليها الحياة واستمرارها بقدرة الله

٤٦) التبيان في أقسام القرآن ٤٧ .
٤٧) التحرير والتنوير ٣٠/٣٤٨ .
٤٨) الأمثل ، ناصر مكرم شيرازي ، د . ط ، د . ت ، ١٧ / ٢٠٧ .
٤٩) التبيان في أقسام القرآن ١٠٣ - ١٠٤ .
٥٠) البرهان في علوم القرآن ٣/٤١ .

التي لا يقدر عليها أحد ، ففي هذه الآيات تقابل بين النور والظلمة ، وغشية الليل وتجلّي النهار ، وإشراق الضحى وهدوء الليل ، وتألّق الفجر وتنفس الصبح ، ويُلحظ في معظم هذه المواضع ظاهرة بيانيّة تجلو معنويّات الهدى والضلال ، بحسّيّات النور والظلمة(٥١)؛ إذ هي صور مادّيّة حسيّة معاينة، تدفع المتأمّل للتفكير في مسبّبها ودلالاتها المعنويّة ، وكذلك في ترتيبها وانسجامها وتماسك نصوصها ، وارتباطها المتناسب داخل السورة الواحدة وبما جاورها من السُّوَر أيضًا . وَمَا أَقْسَمَ عَلَيْهِ الرَّبُّ فَهُوَ مِنْ آيَاتِهِ ، وأنّ القَسَمَ لكمالِ الحجة وتأكيدها ، وجاءت هذه الأقسام في سياق ثماني سور مختلفة ، وفي ثلاث عشرة آية (٥٢) .

ثانيًا : اختلاف النحويين في توجيه (إذا) بعد القسم

(إذا) بعد (القسم) تركيب رصده النحاة العرب في القرآن الكريم ، وقد رفضوا أن يكون من باب القَسَمِ المتبوع بشرط ؛ لموانع منعتهم من هذا الاعتداد والتوجيه ؛ وقد لحظوا التعارض بين توكيد القسم وافتراض الشرط ، على الرغم من تمييزهم (إذا) بمزيّات عن بقيّة أدوات الشرط ، إذ قرّروا أنّ (إذا) مدار البحث للمقطوع بحصوله أو لكثير الوقوع ، أو هي للوقت المعلوم ، قال سيبويه : ("إذا" تجيء وقتًا معلومًا ... و"إذا" توصلُ بالفعل ، فالفعل في "إذا" بمنزلته في "حين" كأنّك قلت : الحين الذي تأتيني فيه آتيك فيه)(٥٣).

(وقال أبو عليّ الفارسيّ: ما بعد (إذا) معيّن معلوم ، وما بعد الحروف [حروف الشرط] التي جُزم بها في المجازاة ليس بمعيّن ، ولا كائن ، لا محالة ، كقوله تعالى : (إذا السماء انشقّت ـ الانشقاق ١) ، و (إذا السماء انفطرت ـ الانفطار ١) ؛ وأيضًا فإنّ الذي منع من المجازاة بـ (إذا) أنّه يضاف إلى الجمل التي هي من الفعل والفاعل ... فالجملة بعده في موضع جرٍّ بالإضافة ... والفعل في (إذا) بمنزلته في الحين ... قال أبو علي : يُريد أنّ (إذا) إذا أضيف اختصّ كما أنّ الحين إذا أضيف اختصّ ، وإذا اختصّ بَعُدَ من المجازاة)(٥٤).

وقبل إبي عليّ الفارسيّ قال المبرد : (إنّما منع "إذا" من أن يُجازى بها ، لأنّها مُوقّتة ، وحروف الجزاء مبهمة ، ألا ترى أنّك إذا قلت : إن تأتني آتك ، فأنت لا تدري أيقع منه إتيان أم لا ؟ وكذلك من أتاني أتيته ، إنّما معناه : إن يأتني واحد من الناس آته)(٥٥). (فإذا قلت : إذا أتيتني ، وجب أن يكون الإتيان معلومًا ، ألا ترى إلى قول الله عزّ وجل : (إذا السماء انفطرت ـ الانفطار ١) ، و(إذا الشمس كوّرت ـ التكوير ١) ، و(إذا السماء انشقّت ـ الانشقاق ١)، أنّ هذا واقع لامحالة)(٥٦) .

و(إذا) للوقت عند ابن خالويه : (ومن سورة الليل ... والليلِ : جُرَّ بواو القسم ... إذا يغشى: إذا حرف وقت غير واجب ، ويغشى : فعل مضارع)(٥٧) ؛ والوقت هو ظرف الزمان عند البصريين ، وغير واجب : غير مستحق الجواب(٥٨) .

ويعرض الرضيّ ردّ شرطيّة (إذا) في هذا التركيب بسبب تعذر تقدير الجواب : (قيل: ليس في "إذا" في نحو قوله تعالى: (والليل إذا يغشى ـ الليل ١) معنى الشرط ، إذ جواب الشرط: إمّا بعده أو مدلول عليه بما قبله ، وليس بعده ما يصلح للجواب لا ظاهرًا ولا مقدّرًا، لعدم معنى الكلام عليه ، وليس ههنا ما يدلّ على جواب الشرط قبل (إذا) إلاّ القسم ، فلو كان (إذا) للشرط كان التقدير : إذا يغشى : أُقسِمُ ، فلا يكون القسم منجزًا ، بل معلقًا بغشيان الليل ، وهو ضد المقصود ، إذ القَسَمُ بالضرورة حاصل وقت التكلم بهذا الكلام ، وإن كان نهارًا غير متوقف على دخول الليل ...)(٥٩)؛ وهذا التقدير وإن خالف ظاهر تأليف الجملة ، لا تقدير انتظام الظواهر الكونيّة بدليل ما بعد (إذا) من أفعال .

٥١) التفسير البياني ٩٧ .
٥٢) (والنجم إذا هوى ـ النجم ١) ، (والليل إذا أدبر والصبح إذا أسفر ـ المدّثّر ٣٣ ـ٣٤) ، (والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفّس ـ التكوير ١٧ ـ ١٨) ، (والقمر إذا اتّسق ـ الانشقاق ١٨) ، (والليل إذا يسر ـ الفجر ٤) ، (والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاّها والليل إذا يغشاها ـ الشمس ٢ ـ ٤) ، (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى ـ الليل ١ ـ٢) ، (والضحى ، والليل إذا سجى ـ الضحى ١ ـ ٢) .
٥٣) الكتاب ٦٠/٣ .
٥٤) التعليقة على كتاب سيبويه ١٧٥/٢ ـ ١٧٦ .
٥٥) المقتضب ٥٦/٢ ، و(الموقّت) مصطلح كوفيّ أرادوا منه العَلم المعيّن ، المعروف بالعلميّة ، أو المحدّد ، أو غير المبهم من المعارف والنكرات ، معاني القرآن ٧/١ ، وينظر مسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ٤٩.
٥٦) المقتضب ٥٥/٢ ـ٦٠ .
٥٧) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ١٠٧ .
٥٨) الكليات ، للكفوي ٥٨١ .
٥٩) شرح الرضيّ٤/ ١٣٤ ـ ١٣٥ .

ثالثًا : الاختلاف في تقدير تركيب (إذا) بعد القسم

عَرَضَ النحاة بعد ردِّ شرطيّة (إذا) بعد القسم ما احتملوه لإعرابها، أختصره فيما يأتي:

١ ـ أن تقدّر حالاً : (والنجم إذا هوى) : والنجم هاويًا ، (والليل إذا يغشى) : والليل غاشيًا ، (والنهار إذا تجلى) : والنهار متجليًا ، وهكذا ، قال الرضيّ : (فـ"إذا" ظرف زمان ، والعامل استقرار محذوف في موضع نصب على الحال ، والعامل فيها "أقسم" المحذوف ... وظروف الزمان لا تكون أحوالًا عن الجثث ، كما لا تكون أخبارًا لهنّ)[٦٠] ؛ عرض الرضي الاحتمال ثمّ ردّه .

٢ ـ أن تقدّر ظرفًا : (والنجم إذا هوى) : والنجم وقت هُوِيّهِ ، (العامل في الظرف فعل القسم المحذوف، تقديره : أقسم بالنجم وقتَ هُوِيّه ... وإذا ثبت أنها لمجرد الظرفية ، فليست متعلقة بفعل القسم ...)[٦١] ؛ وردّه ابن هشام في قوله : (لا يصحّ التعليق بأقسمُ الإنشائي ، لأنّ القديم لا زمان له، ولا حال ولا غيره ، بل هو سابق على الزمان)[٦٢] .

٣ ـ أن تقدّر بدلاً : (والليلِ إذا يغشى) : (وهي مجرورة المحل هاهنا لكونها بدلاً من الليل ... والتقدير : أقسم بالليل وقتِ غشيانه ، أي بوقتِ غشيان الليل ...)[٦٣] . و ("إذا" بدل من المقسم به مخرج عن الظرفية ، أي وقتَ غشيانه ... وليس ببعيد أن يقال : هو ظرف لما دلَّ عليه القسم من معنى العظمة والجلال ، لأنّه لا يُقسم بشيء إلاّ لحاله العظيمة)[٦٤] ؛ لكنّ الجمهور لا يجيزون خروج (إذا) عن الظرفية .

٤ ـ أن تقدّر مفعولاً بها متجردةً عن الشرطية والظرفية (لمجرد الوقت من دون تعلق بشيء ... وحصول القسم من غير تقييد ... وقد تفارقها الظرفية ، مفعولًا بها)[٦٥].

رابعًا : توجيه المحدثين لـ (إذا) بعد القسم

ذكر الدكتور سمير ستيتيّة ـ من المحدثين ـ أنّ (إذا) في هذا الموضع قد أفرغت من دلالتها الشرطيّة ، وهو ما أسماه بالشرط المفرّغ، وانصرفت دلالتها إلى الظرف المحض[٦٦]، ونجد أنّ الدكتور لم يخالف القدماء إلاّ في العبارة والاصطلاح .

أمّا الأستاذ كاظم الراوي فيرى : (أنّ "إذا" بعد القسم في هذه الآيات إنّما تدلّ على استغراق الزمن ، وكأنّ القول : أقسمُ بهذه الآيات التي يتجدّد ظهورها كلّ حين أمام أعينكم ... آيات الله الدالّة على كمال قدرته ، فإنّ ما يصنعه البشر ممّا وصل الغاية في الدقّة لا يلبث أن يُخلق ويبلى ، ولكن آيات الله التي مضى عليها الزمن تتجدّد كما هي ، وسوف تبقى كذلك حتى يقوم الناس لربّ العالمين)[٦٧] .

وهذا هو الذي نرجّحه، أي أنْ تبقى جملة (إذا بعد القسم) على شرطيتها، استنادًا إلى دلالة مجموع نصوص هذه الآيات في التقدير للجواب ؛ ونستند في هذا الترجيح إلى منهج التحليل النصّي، الذي (يُعنى بتقديم تفسير أرحب ورؤية أكثر إقناعًا ممّا هي عليه في الأنحاء التقليديّة "نحو الجملة"، إذ يهتم بما هو أكثر عموميّة وشموليّة فيما يرتبط بالأشكال التي يتيحها النصّ)[٦٨].

وينصر هذا الذي نرجح القول بـ (تفسير القرآن بالقرآن) : (فما أُجمِل في مكانٍ فقد فُصّل في موضع آخر)[٦٩]، واستيضاح معنى الآية يتحقق من نظيرتها بالتدبّر المندوب إليه من القرآن نفسه ، الذي (ينطق بعضه ببعض ، ويشهد بعضه على بعض ...)[٧٠].

٦٠) البرهان ١٩١/٤ .
٦١) نفسه ١٩٣/٤ .
٦٢) مغني اللبيب ١٠٠/١ .
٦٣) البرهان ١٩٣/٤ ـ ١٩٤ .
٦٤) شرح الرضي ٤/ ١٣٥ .
٦٥) البرهان ١٩٣/٤، ١٩٥ .
٦٦) الشرط والاستفهام في الأساليب العربيّة ٤٥ .
٦٧) أساليب القسم في اللغة العربية ٥١٩ .
٦٨) نحو النصّ بين الأصالة والحداثة ٤٠ ـ ٤١ .
٦٩) البرهان ٢/ ١٧٥ .

وقد قيل (ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني منتظمة المباني)[٧١] .

الخاتمة

يُراد بتركيب (إذا بعد القسم) - في القرآن الكريم - تأمّل الظواهر الكونيّة المشاهدة ، كانتظام دوران الأفلاك وسيران النجوم ، وبلوغ هذه الظواهر غاياتها المرتّبة المقدّرة لها ؛ فكان مساق آيات هذا التركيب في مواجهة المكابرين الذين لا يسلّمُون للحجج العقليّة والبراهين المنطقيّة ، ولا يُتصوّر أن يتواصل مناظرتهم على هذا المنوال ، فترجّح القسم مع مثل هؤلاء المكابرين ؛ بتراكيب تعظّم المقسم به المؤلفِ من منظورات مشاهدة معروفة، تُومِئُ إلى معانٍ حسيّة مدركة تتصل بقدرة الله التي يحاول المعاندون تجاهل وجودها المرتبط بمدبّرها جلّ وعلا. وكان مجموع ما تكرّر من هذا التركيب: ثلاث عشرة مرّة، وأكثرها تكرارًا: (والليل إذا...): ستّ مرّات، فيما تكرّر كلٌّ من الصبح والقمر والنهار مرّتين:

(والصبحِ إذا أسفر) ، (والصبحِ إِذَا تَنَفَّسَ) .
(والقمرِ إذا اتّسق) ، (والقمرِ إِذَا تَلَاهَا) .
(والنهار إِذَا جَلَّاهَا) ، (والنهار إِذَا تَجَلَّى) .

وأمّا النجم فلم يكن إلّا لمرّة واحدة : (والنجمِ إذا هوى) .

وانتظم تكرار (والليل إذا ...) بصيغ الماضي ثلاث مرّات متناظرة ومنسجمة :

(والليل) إذا أدبر، (والليل) إذا سجى ، (والليل) إذا عسعس .

وثلاث مرّات بصيغ المضارع :

(والليل) إذا يَسرِ ، (والليل) إذا يغشى ، (والليل) إذا يغشاها .

وتبيّن أنّ وقت غشيان الليل تكرّر مرتين بصيغة المضارع لأنه يغشى شيئًا بعد شيء، فيكون قد أقسم بانصرام الليل ومجيء النهار عقيّبه وكلاهما من آيات ربوبيته[٧٢] ، ومثلهما المضارع (إذا يَسْرِ) التي تعني المُضِيّ والتقضّي ووقت السريان[٧٣]، وأضاف السير إليه لأنّ الليل يسير بالمسير المقدّر له في الفلك .

وأخيرًا : نرجّح أنّ (إذا) بعد القسم باقية على شرطيتها ، استنادًا إلى ربطها بمجموع نصوص ما وردت فيه ، وما أضفته من معانٍ ، وما أظهرته من حقائق كونيّة ، متجاوزين ما قرره - نحاة الجملة - ومعتمدين على ما تتيحه الدراسة النصّيّة بـ (تقدير جواب الشرط أقسمُ بهذه الآيات التي يتجدّد ظهورها كلّ حين أمام أعينكم آيات الله الدالّة على كمال قدرته، فإنّ ما يصنعه البشر ممّا وصل الغاية في الدقّة لا يلبث أن يخلق ويبلى ، ولكن آيات الله التي مضى عليها الزمن تتجدّد كما هي، وسوف تبقى كذلك حتى يقوم الناس لربّ العالمين)[٧٤] .

إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، لابن خالويه ، دار الكتب المصرية ، ١٩٤١ .
الأمثل في تفسير كتاب الله المنزّل ، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ، د ط ، د ت.
البحر المحيط ، لأبي حيان ، الرياض ، د . ت .
البرهان في علوم القرآن ، للزركشي ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم ، مصر ، ١٩٥٧.
التبيان في أقسام القرآن ، لابن قيّم الجوزية ، دار الفكر ، د . ت .
التحرير والتنوير ، لابن عاشور ، بيروت ، ٢٠٠٠ .
تحليل لغة القرآن وأساليب فهمه، د . محمد باقر، ترجمة علي عباس الموسوي، بيروت، ٢٠١٤.
التعليقة على كتاب سيبويه ، لأبي علي الفارسي ، تح د . عوض القوزي ، الرياض ، ١٩٩٢.
تفسير أبي السعود ، بيروت ، د . ت .
التفسير البياني ، د عائشة عبد الرحمن ،مصر ، ١٩٧٧.
تفسير كنز الدقائق ، محمد رضا القمي ، طهران ، ١٩٩١.

٧٠) تحليل لغة القرآن ٥٢٠، وفي شرح نهج البلاغة من كلام أمير المؤمنين (كتاب الله ... ينطق بعضه ببعض ، ويشهد بعضه على بعض) ٨/ ٣٩٦.
٧١) الإتقان ٣/ ٢٧٢ .
٧٢) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيّم ٣٥ .
٧٣) الدر المصون ٦/ ٥١٨ .
٧٤) أساليب القسم في اللغة العربية ٥١٩ .

جامع البيان للطبري ، بيروت ، ١٩٩٥.
الجنى الداني للمرادي ، تح د . فخر الدين قباوة ، بيروت ١٩٩٢.
الدر المصون ، للسمين الحلبي ، تح د . زكريا عبد المجيد ، بيروت ، ١٩٩٤ .
شرح الرضي على كافية ابن الحاجب ، تح د . عبد العال سالم مكرم القاهرة ، ٢٠٠٠.
الشرط والاستفهام في الأساليب العربيّة ، الدكتور سمير ستيتيّة ، د . ت .
عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، للعيني ، بيروت ، د ت
فتح القدير للشوكاني ، عالم الكتب ، د . ت .
كتاب سيبويه ، تح عبد السلام هارون ، ط ٣ ، عالم الكتب ، ١٩٨٣ .
الكليات ، للكفوي ، تح د عدنان دروش ، ومحمد المصري ، قم ، ١٤٣٣ .
مسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ، د . مهدي صالح سلطان ، بغداد ، ٢٠١٣.
مغني اللبيب ، لابن هشام ، تح د . مازن المبارك ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٦٩ .
مفتاح العلوم للسكاكي ، تح أكرم عثمان يوسف ، بغداد ، ١٩٨١.
الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي ، بيروت ٢٠٠٦.
نحو النصّ بين الأصالة والحداثة ، د أحمد محمد عبد الراضي ، القاهرة ، ٢٠٠٨ .
الوسائط اللغوية ، محمد الأوراغي ، الرباط ،٢٠٠١ .

المصادر:

الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطي ، تح أحمد بن علي ، القاهرة ، ٢٠٠٤ .
إحصاء العلوم ، للفارابي ، تح عثمان أمين ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
ارتشاف الضرب لأبي حيّان ، تح د رجب عثمان ، القاهرة ، ١٩٩٨.
أساليب القسم في اللغة العربية ، كاظم فتحي الراوي ، بغداد ، ١٩٧٧ .
أسرار الآيات ، صدر الدين الشيرازي ، ١٤٠٢ه .
أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها، لمحمد بن أبي بكر الرازي، تح أبي عبد الله بن العدوي، المنصورة ٢٠٠٧.